أُمُّ الوَاحِدِ الثَّكْلَى

وصف رَزِيَّتِها في أربعِ قصائد قديمة

● د. محمد السليمان السديس ●

وَجْدِي بها وَجْدُ مِقْلاتٍ بِواحِدِها وليس يَقْوَى مُحِبٌّ فوقَ ما أَجِدُ

....

فما وَجَدَتْ وَجْدِي بها أُمُّ وَاحِدٍ ولا وَجْدُ حُبَّى بِابْنِ أُمِّ كِلابِ

هدبة بن خشرم

* * * * *

تمتد ذراع الرَّدَى الطُّولَى فتغرس براثن كفِّها الحادة في ضحيتها، وتختطفها إلى حيث ألقت رحلها أُمُّ قشعم، خطفاً لا إفلاتَ منه، غير حافلةٍ بما يَلِدُهُ ما تصنع من أسى يَهُزّ الوِجدان، وَيُهدُّ الكيان، وكمدٍ يَؤُزّ الروح، ويُضْرِم الضِّرامَ بين الجوانح.

هذه الذراع المأمورة تعمل ما تعمل وتمضي مخلِّفةً في أنفس من لبثوا بعد مَنْ خطفته شجناً ربما يَبَّض العيون والشعور، لأن العاطفة الجائشة غبّ الرحيل النهائيّ لعزيزٍ عزَّ أن تدانى فورةً وسَوْرَةً، واحتداماً واضطراماً، ونفوذاً إلى أقاصى أغوار النفس والجسد.

فإن كان ذلك العزيز الفقيد من بني الفاقد تضاعفت قوة (الشحنة العاطفية) وفورتها وجَيَشانها. فإن كان ذلك الابنُ واحدَ أبويه الذي كان وحده مؤنس وحدتهما، ومشاركَهما في حلو العيش ومُرّه، ثم أَلْفَيَا محِلّه، بين غمضة عين وانتباهتها، وقد صَفِرَ صُفُوراً مُوجِلاً ممن أَلِفَا الأُنسَ بِمَسِّهِ وتَحَسُّسِهِ والتربيت عليه، أو الاعتماد عليه بعد الله عزَّ وعلا في جليل الشأن وصغيره، فإنهما، لا غرو، يعانيان معاناة عاطفية عارمة لا تدانيها معاناة لفقد هذا الكائن الحي الفريد الذي تجسدت فيه المعاني المتنوعة للحياة التامة .. الكائن الحي الفريد الذي انصبت فيه وعليه وعبره أحاسيس الحب الأبوي الدافئ الصافي الحلو من نوازع الانتفاع كافة.

الكائن الحي الفريد الذي كانت تشعُّ إليه من كيان أبويه البهجة الدفين، والقناعة الكامنة، إشعاعاً يرتدّ إليهما – وإن لم يُرَ رأي العين – رِداءً من الرِّضا والطمأنينة والسكينة.

ويَعْظُم هول الفقد حين يكون الفاقد أُحَدَ الأبوين دون أن يكون الآخر إلى جانبه يَشُدّ أَزْرَهُ، ويقوّي عضُدَه، ويواسيهِ أو يُسْلِيهِ، ولا سيما حين تكون الأم، ومن كالأم ؟، هي التي قدِّر عليها أن تتجرّع غُصَصَ فقْدِ وحيدها. وإنه وإن كانت العبارة المؤلَّفة من لَفْظات ثلاثٍ وحسب : (أُمٌّ فَقَدَتْ ابْنَها) تنوء بدلالتها ذات التأثير الفائق القوة، تلك الدلالة التي ربما عَيَّ كَتَبَةٌ وشاعرون كثيرون حتى عن الدنوّ من مَسِّها الصاعق، إلا أنَّ ثلاثة شعراءَ فحولٍ قدماءَ تمثلوا ذلك الموقف المأساويّ المشحون بالإحساس والانفعالِ المتدفق، الذي اتخذه الألم الكوَّاءُ، والأسى اللسّاع، وعاءً له كان أضيق من أن يُحْكِم التحكُّم فيهم، أو كَبْحَ جِماحِهِم، فاقتدر أولئك الشعراء الثلاثة على (الصعود) إلى (الحدث) ومواكبةِ هَوْلِهِ بما أوتوه من مخيلةٍ ثريَّة، وحِسٍّ رقيق، ورؤية شاعرةٍ تنفذ خل السُّدف والأستار، لتكشف عما يعتلج في طوايا وجدانِ الإنسان من وَجْدٍ ربما ظَلّ حتى (الشاعر) به عاجزاً عجزاً شديداً عن تجلية كل ما يَلُفُّه أو بعضِهِ من استبهامٍ واستغلاق، أو حتى أحياناً عن مجرد استخراجه من مكمنه ليبدوَ لكل راءٍ.

كان اثنان من الثلاثة هُذَلِيَّيْن أحدهما عبد الله بن سَلْم أو سَلَمَة السهميّ الشهيرُ بأبي صخر الهذلي ذو الصيت الذائع، واسم الآخر ساعدة بن جُؤَيَّة، وهو، وإن كان دون صاحبه اشتهاراً، فما هو بدونه فحولةً وجزالة كلمة. أما الثالث فهو حُميد بن ثور الهلالي(*). وقد عاشوا جميعاً في عصرين لا يفصلهما فاصل زمانيٌّ طويل، إذ كان ساعدة وحميد مخضرمين عاشا في الجاهلية وأدركا الإسلام وأسلما، وعاش أبو صخر في عصر بني أمية.

عالج أبو صخر الحدث المفجع بقصيدة يتيمة لا يُنيف عدد بيوتها على العشرين إلا قليلاً، وصوَّرَهُ ساعدة بقصيدتين لا تختلفان من حيث عَدَدُ أبياتهما كثيراً عن قصيدة أبي صخرٍ، أما حميد فعالجه بقصيدةٍ ذات ٢٧ بيتاً.

تَوافَق الثلاثة في تصوير هَوْلِ الجَيَشانِ العاطفيِّ المضطرمِ في جَوْشَنِ الأمّ وروحها، بل في كيانها بأسْره، عند صدمتها الأولى، إذِ استبانت أن وليدَها، الذي طاف يبغي نَجْوةً من هلاكٍ، قد هلك. وقد أفلحوا إفلاحاً كافياً في بناء مشاهد المسرحية المأساوية، وإغنائها بالتفاصيل والجزئيات ذات الإيحاءات المُثْرِية، التي تلتئم فتسهم في خلق العمل الإبداعيّ المتقن.

هذا التوافق، الذي كاد يكون تامًّا، ليس بوسع المَرْءِ تلقاءَهُ إلا ترجيح أنّ أحد الشعراء قد حاكى صاحبيه، أو أن اثنين منهم حاكَيَا ثالثهما على رغم تفرع سُبُلِهِم، ففي حين سار أبو صخر في تصوير فاجعة الأمّ دون أن (يستثمر) إصغاء (المتلقّي) إليه بمباغتةٍ غير متوقعة، أو أن يسعى تعاطفاً منه معه، وحَدَباً عليه، إلى إعادة حَدَثه الدراميّ في حافِرتِهِ إعادةً توشك أن تَقْلِبَهُ قَلْباً، صنع ساعدةُ بن جؤية هذا الصنيع في كلتا قصيدتيه فجعل البشيرَ يَنْزُغُ، آخر الأمر، ويَؤُمُّ الأُمَّ، وهي في أوج اصطراعها مع الفجيعة، لِيُنْبِئَها أن ابنها ممتلىءٌ حياةً، وأنه في طريقه إليها طائراً كعُقابٍ، أو – وهذا أدنى إلى القصد – عادياً كظليمٍ أو عَيْرٍ بَرِّيٍّ. كما صنعه حميد أيضاً فجعل الابن نفسه يُهِلُّ على أمّه أصحَّ ما يكون وهي في دوامة لوعتها.

ومع استباقنا الحدث والحديثَ، بهذه الإشارة المقتضبة إلى منهج كل من الشعراء الثلاثة في تناول الموضوع هذا، فما فتىء هنالك لدى كل منهم الكثير الحَرِيّ بالنظر والتأمل.

ولا ضير في أن نبدأ الحديث عن معاني قصيدة أبي صخر، وإن كان متأخراً عن كل من حميد وساعدةَ كما ذكرنا، ويحتمل تأثره بهما.

استهلّ أبو صخر القول بالحديث عن امرأة كان يهواها، تدعى ليلى، ما كان يرى لها مثيلاً في نساء الأرض جميعهن، ففدّاها بأهله، وأقسم باللّه جَهْد يَمينِهِ أنه ما جانفَ الصِّدق، ولا اجْتَنَبَ الحق، حيث أكد أنها حلّت في فؤاده محلاً مكيناً لا تريمه، على قنوطه من نيل وصالها ما شرب النخل من حويضاته المستديرة حول أصوله. وفي خاتمة هذا الحديث العابر المباشر عن العلاقة بين الشاعر وحبيبته خلص إلى التأكيد بأن أخفَّ ما تُكِنُّهُ جوانحه لها من حبٍّ يَعْدِلُ ما يجيشُ في صدرِ أمٍّ حين يَصُكُّ مسامِعَها نبأُ لِقاءِ واحدِها مَصْرَعَه.

وأغلب الظن أن أبا صخرٍ ما كان في الحقيقة عاقداً النيّة، هذه المرة، على وصف ما قد يكون عاناه أو لم يعانِهِ حِذاءَ ليلى، وإلا لما اكتفى من ذلك بهذا المرور الذي هو أسرع من مرور الكرام، والأحرى أنه قد وضع نصب عينيه، حتى قبل أن يلفِظ لفظاً واحداً عن علاقته الغرامية، الموضوعَ الذي كانت قد التأمتْ وحداته في ذهنه باكراً، فاتخذ من وصف صلته بليلى وسيلةً قفز منها قفزاً إلى غايته، وهي تصوير العاطفة المشبوبة بين جوانح أمٍّ متعلقةٍ بابن ليس لها في دنياها سواه .. تلك العاطفة التي أجَّجَتْها المأساة التي حطت على هام الأم المُسِنّة المسكينة. وهو لم يَتَّبِعْ تماماً سَنَنَ من كان قبله، فلم يتبع أسلوب القصيدة القديمة التقليديَّ بإطالة الحديث عن الحبيبة فيما سمي بالمقدمة الغزلية، فلم يك يطيق الصبر عن (الغرض) الذي

عقد العزم على تناوله. وهو في ذلك كشعراء أقدمين آخرين اتخذوا من وصف الناقة على سبيل المثال، في كثير من الأحيان، جسراً قصيراً يقطعونه أثناء عملية المخاض الشعري، بلا أدنى ريثٍ، إلى بغيتهم الحقيقية فيبْرَحون الفكرة المقتولة من كثرة ما أعيد فيها من قولٍ، إلى موضوعٍ لا يبلغ في شدة أُلْفَتِه مبلغ وصف الناقة الذي لم يكد يغادر فيه الشعراء من متردَّمٍ، وكما يصنع الشاعر الذي امتزج بدمائه حُبّ الطبيعة، والتوجه إليها، بل والانغماس فيها، وتأمل مظاهرها، ثم الحديث عنها حديثاً صادقاً عفويًّا منساباً من الخاطر انسياب الماء الرقراق المتدفق عبر الرياض .. كما يصنع هذا الشاعر حين يُلفي نفسه مسوقاً بعلة أو بأُخرى، دون أدنى ميل يلقاه في نفسه، إلى اعتصار الذهن وإكْرَاهِ اللسان، لاستخراج المعاني استخراجاًعنيفاً، لِتصُبَّ إثناءً مصنوعاً لا يجاوز الحنجرة، على ممدوحٍ أنأى ما يكون عن استحقاقه.

فيبدي الشاعر المطاوعة ويسلس، مكْرَهاً لا بطلاً، القيادَ، لكنه، وهو الشاعر الذي لا يغضى على القذى من الضيم، يعمد إلى الكيد للممدوح الثقيل، فيمضي سارحاً مارحاً في كلمته الطويلة التي يفترض أنها مديح للخليفة مطلقاً النفس على سجيتها، وفي الميادين التي تريدها، لتتحدث عن أغراضها الأثيرة لديها، الدانية إليها، حديث المُعْتَني المُفَصّل، الذي يدع العنان لشاعريته تجوب شعاب الفنون الشعرية المحببة إليه، وتجوس خلال مضامينها، ثم في آخر مطافه يَعُوج إلى المديح فيعتصر اعتصاراً من بين فكيه ألفاظاً يلوكها متراخياً، ليس فيها مما يمتدح به خلا القليل، بل ربما لا يشم منها سوى ريح المديح، ذارًّا بذلك الرماد في الأعين، ومموهاً على الممدوح الذي قد لا تنطلي عليه المكيدة⁽¹⁾، وموهماً له بأن هذا الشعر الكثير مديح له، كأن يقول : رب سائل يسأل لِمَ لَمْ أقصدْ من يحقق رغبات المجتدين.   لا يعلم أن الداء هو الذي حال بيني وبين ذلك، ولولاه لكنت في طريقي إليه⁽²⁾.

وقل مثل ذلك عن الهجاء حين لا يأتي وليد إثارة صادقة.

عندي أن ذلك هو سبب تعجّل أبي صخر في ذِكْرِهِ لِلَيْلاه وذكراه لها، ثم رَيْثِه، في م ذلك، في تصوير مأساة الشيخة، وكأنه يومىء إلى أن هذا ليس أوانَ الحبّ والفرح بل أوان الحسرة والترح، وأن فداحة البلاء أعجمت لسانه عن التغزل، وصرفته عن القول اللاهي إلى الحديث المهموم، فمضى ينعت المشهد المحتدم بالألم :

شيخةٌ متوغلة في الشيخوخة، لم يشتعلْ منها الرأس وحده شيباً، بل نبت لها شَعرٌ على عارضَيْها، وشاب أيضاً، وقد لاكتها الدنيا، وكثر أزواجها الذين تعاقبوا عليها واحداً إثر واحدٍ،

إذا لقي أحدهم حتفه تلاه آخر، مما زاد في بلاها واندراس فتائها وشبابها !

أناخ الدهر بكلكله على بَنِيها، فلم يَبْقَ منهم لها إلا ابْنٌ واحد. ابنٌ حملته بأُخَرَةٍ من العُمْر، فلم تكد تصدق أنها حملت، فهي عجوز وبعلها شيخ، فلما وضعته أضحى، في عينها، هو في كِفَّةٍ والدنيا بأسرها في كِفَّة، فكانت لا تفتُرُ عن ضَمِّه واحتضانه وإلصاقِهِ بكبدها التواقة إلى البنين، التي ذاقت طعم الثُّكل، وكَوَاها حَرُّ ناره.

أغدقت هذه العجوز على صَبِيِّها الوحيد الذي كان يعدل لديها جوهرتيها كل ما أُوتِيَتْهُ من حبٍّ ورأفة وحنان، وبذلت غاية جهدها لِتَنْشِئَتِهِ تنشئة الرجال التامِّي المروءة، الدانين من الكمال البشري أقصى دُنُوٍّ ممكن، فكان لها ما ابتغت إذ تَتَوَّجَ صبرُها غير الملول، وجهادُها غير الكلول، بالإثمار السارِّ، فشبَّ ابنها عن الطوق، وبلغ مبلغ الفتيان الأشداء، وبدا كالقناة الصليبة طولاً وفَتَاءً ونماءً، ولاحت عليه دلائل النبلِ، وكرمِ السجايا، والجزالةِ، وسمات رجاحةِ العقل حتى بات ذوو الأسنان يقصدونه ويُحَيُّونه، على فتوَّةِ سنِّه، تحية الكهل الذي بلغ الأشُدَّ، لِما تَبَيَّنوه فيه من رزانةٍ وبعُدِ نظرٍ، وما توسموه فيه من جرأة فذةٍ وجُودٍ عزيز :

بِأهْلِيَ مَنْ أمْسَى، على نأيِه، شكْلا   ومن لا أرى في العالمين له مِثْـلا
وأُقْسِمُ باللَّه الذي اهتزَّ عَرْشُـــه   على فوق سَبْعٍ لا أُعلِّمُهُ بُطـلا
بـأنَّ لِلَيْلَـى في فـؤادي عَلاَقـــةً   على اليأسِ منها، ما سَقَى الشَرْبُ النَّخلا(٣)

* * * *

فما وَجْدُ شَمْطاءِ العَوارِضِ أَقْلَتَتْ   بَنيها فلم يُبْقِ الزمان لها أهـلا(٤)
وقد لَبِسَتْ حتى تَوَلَّى شبابُهـــا   إذا مات بَعْلٌ بُدِّلَتْ بَعْدَهُ بَعْـلا
ولم يَبْقَ من أبنائِها غيرُ واحـدٍ   وما إن أَقَرَّتْ قَبْلَ مَوْلِدِهِ الحَمْـلا
تَكُفُّ عليه الدِّرْعَ ثم تَضُمُّـــه   إلى كبدٍ قد جَرَّبَتْ قَبْلَهُ الثُّكْـلا
فَشَبَّ لها مثلُ الرُّدَيْنِيِّ ماجِـدٌ   كريمٌ تـراه في عشيرتـه جَـزْلا
ترى الشِّيبَ بالآصالِ يمشون نَحْوَهُ   يُحَيُّونه كَهْلاً وإن لم يكن كَهْلا
يُحَيُّون بُهْلُولاً جزيـلاً عطـاؤُهُ   جَميعَ السِّلاح لا جَباناً ولا وَغْلا(٥)

جاء هذا الفتى يوماً أُمَّهُ مستأذناً في الخروج ليغزُوَ مع صَحْبٍ له، وكانوا فتياناً كراماً،

حَسَني صيتٍ، غَيْرَ ضعافٍ أو صُفْرِ الأيدي من السلاح، فلبثت – لِفَرْط حبِّها لَهُ، وضَنِّها به، وفَرَقِها عليه – بضعة أشهر دون أن تجرأ على الإذن له، لكنها لما رأت رفاقه، وتَبَيَّنَتْ أيَّ نوع من الرجال هم لم يَسَعْها سوى الإذعان لما طلب، داعية الله أن يجمع شملها به عائداً ظافراً غانماً.

امتطى الفتى فرساً صهباءَ الصَّهوةِ، طويلة العنق (قَوْداء)، تَعْلُكُ لجامها، لما يجيش فيها من فورةِ قوةٍ ونشاطٍ، كما امتطى صحابه جياداً ضامراتٍ طوالا كالرماح. وتوجهوا تلقاء أرض العدو التي كانت على مسيرة شهرين للخيل العادياتِ ضَبْحاً.

والتقوا بأعدائهم، وساقَوْهم كؤوس الرَّدىٰ، وكانت السهام المرسلة من كل صف نحو الآخر، مقبلةً نحو ذا ومُدبرةً نحو ذلك، كأنها النحل سرعة وصوتا. في هذا الموقف العصيب الذي أشْرَعَت فيه المنايا مناهلها، كان الفتى يصيح بعصبته حاثًّا لهم على الكرّ وضرب الأعداء بلا هوادة، وداعيا إياهم إلى نبذ التلاوم. وكان الأبطال يتحامون لقاءه لما رأوه من حسن بلائه، فقد كان يفتك بالرجال والفرسان والخيل بضرب يطيح بخوذات المقاتلين من على هاماتهم فتتساقط ولها أصوات مسموعة:

أتى أُمَّهُ قد واعَدَ الغَزْوَ فِتْيَةً　　　كراماً نَثاهُمْ لا ضِعافاً ولا عُزْلا
فشكَّتْ عليه نصفَ عامٍ، وعنده　　　من القُودِ صَهْباءُ القَرا تَعْلُكُ النَّكْلا(٦)
فلما رأت أصحابه أذِنَتْ له　　　وقالت : لَعل الله أن يجمع الشملا
فسار إلى الأعداء ستِّين لَيْلَةً　　　على ضُمَّرٍ مثلِ القنا مُطِلتْ مَطْلا(٧)
فلما رأوا حَوْض المَنِيَّة حَثَّهُمْ　　　وقال : اضربوا لا أسْمَعَنَّ لكم عَذْلا
تَخالُ اختلافَ النَّبل بين صفوفهم　　　إذا أدْبَرَتْ أو أقْبَلَتْ بينهم نَحْلا
ترى ابْنَ العَجُوزِ قد تَحامَوْا مقامَهُ　　　إذا شدَّ فيهم عقَّر الخَيْلَ والرَّجْلا
بضربٍ يُطاطِي البَيْضَ من فوقِ رُوسِهِمْ　　　إذا أُكْرِهَت فيهم سَمِعْتَ لها قَصْلا

لكنه، لِعُثُورِ جَدِّه، قُيِّضَ له من بين فرسان عَدُوِّه فارسٌ مقدامٌ، حنَّكه خوضُ المعامع، ونَجَّذَتْهُ مُداوَرَةُ شُؤُون الكرِّ والفَرِّ وتصريفُها، لم يكن ممن يختل الخيل ختْل الصائد لقلة دُرْبَته بطباعها، فظلاً يتعاوران الطعنات، وكل منهما يبذل جهده لتسديد نصاله الطوال العراض القاطعة صوب نِدِّه، وقد نال كل منهما بُغْيَتَه من صرع صاحبه، فخرَّا كما يَخِرُّ جذْعا شجرتي دَوْمٍ قُطعا، وانصاع عنهما جواداهما، ليقعا تحت سوق الخيل.

قام الفتيان بمواراة صاحبهم الثرى، وتسوية تُرْبِ جَدَثِه، ثم غدوا إلى ديارهم ومعهم لباسُه

وأشقـرُ خِنْذِيـذٌ يجُرُّ عِنَانَـهُ إلى الماءِ لم يَتْرُك له الموت ساقيا

استشرفَت الأم نحو العُصْبَةِ العائدة، وأرسلت نظراتها مشتَّتَةً تلقاءَهم وتلقاء جيادِهم .. لكنَّ قلبَها الْتوى الْتِواء الثعبان، وهي ترى كلاً منهم يقصد بيت أهْلِه، ولا ترى لثمرة فؤادها من أثرٍ سوى درعِهِ وسلاحِهِ وقميصِهِ الذي تشرَّب الدَّمَ. فهبَّت إليهم نادبةً نائحةً، فهذا أوان النَّوح، وطفقت تبكي جَدَّها العاثر، وثُكْلَها، ورَجُلَها الفَرْدَ الذي أَفَلَ، ولبثت طويلاً تسكب الدمعَ الثَّرَّ عليه كل ليلة، ولما استفاقت من بأسها بعض الاستفاقة، وخفَّتْ حدَّةُ وقع الصدمة شيئاً عليها، ألْفَتْ نفسها قد خَسِرت إثْرَها صحتها الجسمية أو العقلية !! :

أُتِيـحَ لـه منهم كَمِـيٌّ مجرَّبٌ مُعِيدٌ بِكَرِّ الخيلِ لم يأتها خَتْلا(٨)
فعـاوَرَهُ طَعْنـاً يفـرِّجُ مَـوْرَهُ مَعَابِلُ صُبَّابٍ، وقد مُطِلَتْ مَطْلا(٩)
فخرَّا وجـالت عنهمـا فرساهمـا كما خرَّ جذْعَا دَوْمةٍ قُطِلَتْ قَطْلا(١٠)
فَسَوَّوْا عليـه، ثم راحُـو بِبَـزِّهِ وصهباءَ قد ضَمَّ السِّفارُ لها صُقْلا(١١)
فلم تَرَهُ في القـوم حين تَسَلَّمُـوا ولم تَرَ إلا السَّيْفَ والدِّرْعَ والنَّبلا(١٢)
ونضْخَ دِماءٍ فوق ضاحي قميصِهِ فقامتْ إليهم تَجْمَعُ الثُّكْلَ والرَّجْلا(١٣)
فَبكَت عليـه كـلَّ إمساءِ ليلـةٍ بدمعٍ تراه لا قليلاً ولا ضَحـلا
فلما أفاقت قِيل قـد كان حبُّـه لها سَقَماً، أو كان - يا ويحها - خَبْلا !!

وبعد رحلة الشاعر القصصية غير القصيرة ألقى إلينا بكلمة حول حبيبته التي انفتل عن شأنها سريعاً في أول كلمته، ساعياً دون طائل، إلى حَمْلنا على تصديقه بأنه كان يصف تجربة وجدانية أصيلة، اختلج خلالها وَجْدُهُ بليلى في أعماقه :

فأيْسَرُ ما أبـدِي بِلَيْلَىٰ كوَجْدِهـا سوى أنني أُبدي لها خُلُقاً جَزْلا(١٤)

وباختتام أبي صخر لخبرِهِ البئيس، نلتفت إلى ابن عمِّه الهُذَلِّي الآخر الذي سبقه إلى حرث أرض الموضوع البُورِ، واتخذه موضوعاً لقصيدتين من شعره : ساعدةَ بْنِ جُؤَيَّةَ.

ونبدأ بالقصيدة الأولى وهي الطُّولى منهما، فنجدها ذات مقدمةٍ طللية وغزليةٍ مقتضبة لا تتجاوز أبياتا ثلاثة، أي كمقدمة أبي صخر الغزلية، ولا تحوي إلا اليسير من تقاليد وصف المنازل عند قدماء شعراء العرب، ساءل فيها نفسه آثارها منزل حبيبته (قَيْلَةَ) .. هذا المنزل

المختلف العمر، فبعضه قديم وبعضٌ مستحدث، وهو منزل دارس ما بقي فيه سوى شيء من رمادٍ لبَّده القَطر فكأنه حماماتٌ لاطِئاتٌ بالأرض. ثم أكد أنه، إن كانت قَيْلَةُ قد نأت وعاد لقاؤها عَصِيًّا، فإن حبه لها قد أضناه، لولا تأسِّيه وتصبُّرهُ :

أهاجَك مَغنَى دِمْنَةٌ وَرُسُومُ لِقَيْلَةَ منها حادثٌ وقديمُ
عفا غَيْرَ إرْثٍ مِنْ رمادٍ كأنه حَمامٌ بألْبادِ القِطار جُثُومُ
فإنْ تكُ قد شطَّتْ وفاتَ مَزارُها فإنِّي بها، إلا العَزَاءَ، سَقِيمُ

ثم أُسْرِعْ بنفض الشاعر يده، بل بصرفه لسانه، عن قَيْلَةَ وعن منزلها وعما يصله بها من علائق أو ما يفصله عنها من أسباب، اللهم إلا بالعبارة (المفتاح) لِرِتاج القول الناعت للشيخة، وما أُلَمَّ بها من بأس : «ما وَجَدَتْ وَجْدِي بها أُم وَاحِدٍ». وعدوله إلى الموضوع الأساسي : أُمٌّ لابن واحد بلغت الكبر، وشابت ظفائرها، وأمست عقيماً، قليلة الرجاء في إنجاب سواه.

رزقت هذه الأم ابنها الوحيد هذا بعد أن (أَوْدَى الشَّبابُ فماله مُتَقَفَّر)، فوهنت منها العظامُ، ووهت القوى، وجنح نجم العمر للأفول، بعد أن ظلت تَنَقَّلُ، مرة بعد أخرى، في مسيرة حياتها بين حالات الزواج والأَيْمَةِ، فكل رجل تتزوجه سرعان ما يرسل زمامها، مما ضاعف افتقارها إلى ابنها، وعظَّم عليها مصيبة فقده.

ومما كان أتم قرار عينها بولدها كونُه ذا قوام مُسْتَوٍ، وبُنية صحيحة، وجسم زاده الله بسطة، وأنه أعانها على من يقْلاها ويؤذيها، وكان مقداماً مغواراً غنَّاماً :

وما وجدتْ وَجْدي بها أُمُّ واحدٍ على النَّأْيِ شَمْطَاءُ القَذَالِ عَقِيمُ
رأتْهُ على فَوْتِ الشبابِ وأنها تُرَاجِعُ بَعْلاً مرةً وتَئِيمُ
فَشَبَّ لها مثلُ السِّنان مُبَرَّأً أشَمُّ طُوَالُ السَّاعِدَيْن جَسِيمُ(١٥)
وأَلْذَمَهَا من مَعْشرٍ يُبْغضونها نوافلُ يأتيها بِهِ وغُنُومُ

مضى فتاها مع ثلاثة نَفَر من أخلائِّهِ، وكانوا شُعْثاً غُبْراً من أثر سفرهم في غارتهم طلباً للغُنْم، واعتلى قارةً شمَّاء سامقةً، تنتشر عليها النعائم – وهي عرائش يستظل بها الربيئة الذي يرقب من مكان عال الأعداء لينذر قومه، كما يستظل بها القانص – هذه النعائم بعضها على حال جيد، وقد تحطم بعضها. وكان يزمع الترقب من على هذه القارة، لِتَحَيُّنِ نُهزَةٍ للإغارة، فما شعر إلا وقد أحدقت به عصبة من الرجال ذات عدد، فحمل عليهم بهنديٍّ صارمٍ لا

تُردُّ ضربته، بل يحْطُم العظام حطماً، وكأن الوشيَ على متنه آثارُ دبيبِ شِبْثانٍ، وبقوسٍ لها صوتُ ريحٍ عاصفٍ تطرح ثياب الماشين، لشدتها، كل مَطْرَحٍ :

فأصْبَحَ يوماً في ثلاثة فِتْيَةٍ   من الشُعْثِ، كُلٌّ حُلَّةٌ ونَدِيمُ
وقَدَّمَ في عَيْطاءَ في شُرُفاتِها   نعَائِمُ منها قائمٌ وهزيمُ(١٦)
....
فلم يَنْتَبهْ حتى أحاطَ بِظَهْرِهِ   حِسابٌ وسِرْبٌ كالجراد يَسُومُ(١٧)
فَوَرَّكَ لَيْناً لا يُثَمْثِمُ نَصْلُهُ   إذا صابَ أوْساط العظام صَمِيمُ(١٨)
ترى أُثْرَهُ في صَفْحَتَيهِ كأنه   مَدارِجُ شِبْثانٍ لَهُنَّ هَمِيمُ(١٩)
وصَفْراءَ من نبعٍ كأنَّ عِدادَها   مُزَعْزِعَةٌ تُلْقِي الثيابَ حَطُومُ(٢٠)

وقد تركته سهامه العريضة النصال، الشديدة الحِدَّة، التي كأنها، حين تخرج من كنانتها، نارٌ تتوهج، في حصن حصين من شرِّهم، كما شغلهم عن نفسه بأن أصاب رجلين منهم، فتدفقت منهما الدماء، فتوجهوا إليهما يحملونهما، ويضمدون جراحهما.

وانفتل صاحباه اللذان انطلقا معه في الغارة، لما استيأسا من إمكان غوثه وفكه من أيدي عدوه الحافِّين من حوله، الذين كادوا يفترسونه افتراساً، راضِيَيْن بأن سلما بجلديهما، ومن الغنيمة بالإياب، بعد أن كاد قلباهما يزيغان .. انفتلا لا يلويان على شيء، ولا يألوان جهدا في العَدْو، ولما وردا أرضهما وديارهما، قصدا أُمَّه التي كان فؤادها فارغاً، وأبلغاها، ودموعهما جارية، بأن عهدهما به وقد حاصره خصمه وحاقوا به، ولا محالة أنهم قد أصابوا منه مقتلاً، فليس له من محيص، ولا لِمَنْجاه من وجه.

استخف الأمَّ مُسْتَخِفُّ اللوعة المباغتة فانبعثت تدور، كمخراق بأيدي لاعبين، يمينا وذات الشمال، لا يستقر لقدميها قرار، تسكب دمعاً ساجماً لا ينقطع، وتتجه إليهم بين لحظة وأخرى، تسائلهم مرة تِلْوَ مرةٍ، عن رفيقهم الذي لم يعد معهم، فلا تُلَقَّى منهم سوى تأكيدٍ لنبإهم الكريه، فتعمد، من فرط التياعها، إلى سيرٍ من جلدٍ كانت تنتعله فتشرع تضرب به صدرها ونحرها ضرباً لاسعاً مبرحاً، يُحْرِق الجلد، ويقبض الأحشاء :

وأحْصَنَهُ ثُجْر الظُّباتِ كأنَّها   إذا لم يغيِّبها الجَفيرُ جَحِيمُ
فألهاهُمُ باثْنَيْنِ منهم كلاهما   به قارِتٌ من النَّجيع دَميمُ

وجاء خليلاهُ إليها كلاهما   يَفيضُ دُموعاً غَرْبُهُن سَجُومُ
فقالوا : عَهِدْنا القَوْمَ قد حَصِروا به   فلا ريب أن قد كان ثَمَّ لَحِيمُ
فقامت بِسبْتٍ يَلْعَجُ الجِلْدَ وَقْعُهُ   يقبّض أحشاء الفؤادِ أليمُ
إذا نزَفَتْ من عَبْرَةٍ يَمَّمَتْهُمُ   تُسَائِلُهُم عن حِبِّها وتَلُومُ(٢١)

وبينا كانت في أوج اصطدامها بالبأساءِ، وأقسى لحظات الضَّرَّاء، رافعةً عقيرتها تعول وتولول صائحة نائحة على أعز مفقود، جاهدة جهدها كله في البكاء عليه، والتحسر لفقده، والحَضِّ على الانتقام له، إذ هتف هاتف من القوم مبشراً بمجيء الابن حيًّا معافى .

فلما ذهب عنها الروع وجاءتها البشرى هبت تزيح الناس بذراعيها العبلتين عنه لتتمكن من تَلَقِّيه، وطفقت تلوِّح بردائها، ثم خارت – لهول المباغتة – قواها، وخرّت صَعِقَةً. أما النعل فتخرَّق وتمزَّق لشدة ما لقي من عنيف الضرب.

كانت الفجاءة تعقد الألسنة حين استبان للقوم أخوهم يشتدُّ عادياً كأنما هو عقابٌ تهوي من السماء، وكان يُلقي أرضاً من يصل إليه عادياً من ورائه من أعدائه ليمسكه أو يطرحه أو يقتله، وكأنه حين يزمع الفرار ظليمٌ، أو عَيْرٌ وحشيٌّ غليظ به، من معارَكَةِ الأُتُنِ، جُروح.

فَبَيْنا تنُوحُ اسْتَبْشَرُوها بِحِبِّها   على حين أن كُلَّ المَرام تَرُومُ
فلما استفاقت فَجَّت الناسَ دونه   وناشتْ بأطرافِ الرِّداء تَعُومُ
وخرَّت تليلاً لليدينِ ونعلُها   من الضرب قَطْعَاءُ القِبالِ خذِيمُ
فما راعهم إلا أخوهم كأنه   بِغَادَةَ فتخاءُ الجَناحِ لَحُومُ
يُخفِّضُ رَيْعانَ السُّعاةِ، كأنه   ، إذا ما تَنَحَّى للنَّجاءِ، ظَلِيمُ
نجاءَ كُدُرٍّ من حَمِيرِ أبِيدَةٍ   بفائِلِهِ والصَّفْحَتَيْنِ كُدُومُ
.....

أمَّا في قصيدته الأخرى (الهائية) فتحدث ساعدة الحديث المألوف عن رحلة الحبيبة، وشبه ظعنها بما شبهها به كثيرون سواه : بالسفن التي تحدوها العواصف على أمواج البحار، وشبه الفتاة بظبية طليق في وادٍ وادعٍ لا يُنَغِّصُ سكينة بالها حابلٌ أو نابلٌ، ووصف البرق الذي لمع – كعادة بروق الشعراء – من جهة وطن امرأته، كما وصف السحاب وما جاد به من غيث.

وبعد ذلك أقسم أن تَبَاريح الجوى في جوفه ما هي بأخف من تَبَاريح جوى شيخةٍ أُمٍّ لابنٍ ليس لها ذريةٌ خلاه، رزقها إياه الله بعد أن أطبق عليها اليأس من أن تلد وهي عجوز

وبعلها شيخ لم يُخْفِ قِلّةَ احتفاله بها لكبرها. ونما ابنها وشبَّ حسنَ القوام، صحيح البنية، راجح العقل بحيث أصبح قائد القوم وأميرهم، جريئاً مقداما صُرَعَةً، لا يفتأ مصارعا أعداء قومه، مشمرا عن ساقيه، خائضاً القتال ذوداً عن ذمارهم.

انطلق مع ثلاثة من الفتيان – هذه المرة أيضا – فقطعوا أرضاً خلاءً، وبينما كانوا يسيرون متتابعين نحو جبل منيف أرعن شماخ الذؤابة، إذ أَلْفَوْا أنفسهم وعصبةٌ تحدق بهم من كل صوب، فامتشق سيفا لَيِّناً أتقن صنعه الحداد، وقوسا قوية الوتر، وطفق يسدد نحو صدورهم نباله الحادة التي لا يَرُدُّها عنهم رادٌّ، وبذلك أمكنه إبقاؤهم بمنأى منه. فلما رأى القومَ صرعى كالبُدْنِ النحيرة أو (أعجازِ نخلٍ خاوية) انسلَّ من تحت صليل السيوف المشرعة وهَوَىٰ هُوِيَّ حجرٍ انحطَّ من شاهقٍ فتمكن من فَوْتِ أعدائه، وبات بمنجاةٍ من أذاهم.

وعلى نفس مجرى الأحداث في القصيدة السالفة، ينطلق صاحباه وَيبْلُغان أمه قبله، ويغالبان أمامها الدموع فلا يطيقان حبسها، بل تنبجس بها مآقيهما انبجاسا. ولأن عدد أعدائه كبير، ولأنهما رأوهم محيطين به من كل جانب، لم يك لقاؤه مصيره المحتوم حدسا بل يقيناً لا يمازجه شك، لذلك لم يكتفيا بإبلاغها النبأ اليقين الأسود، بل انبريا يقسمان بالله أن قد شعَبَتهُ شَعُوبُ، فَبَتّا بقسمهما آخر خيط للرجاء في يدها، فطفقت – وقد هيمن عليها أوار اللوعة على فقده وبقائها بدونه – تمسك نعلها اللين بيمينها وتضرب به نفسها، رافعة عقيرتها بالعويل الذي يشق أجواز السماء، والندب والاستصراخ الذي تردد أصداؤه حواليها.

وفي ذروة هلعها لهذه النازلة الفادحة، أَهَلَّ عليها البشير بقدوم ابنها دون أن يَبْدُوَ عليه مَسٌّ من ضُرٍّ، وقد فَتَّتَ الألم الموجع كبدها، وأوهى بقايا قواها، فارتمت على الأرض مطَّرِحَةً شراذم النعل من يدها، وقد تورم إهابُها الرقيق، واستبانت عليه آثار الضرب والجراح :

وتاللّهِ ما إنْ شَهْلَةٌ أُمُّ واحـدٍ   بِأَوْجَدَ مني أن يُهانَ صغيرهـا(٢٣)
رَأَتْهُ، على يأسٍ، وقد شاب رأسها،   وحين تَصَدَّى للهوان عشيرهـا(٢٤)
فَشَبَّ لها مثْـلُ السِّنـانِ مُبَـرَّأً   إمامٌ لنـادِي دارِهـا وأمِيرُهـا(٢٥)
عِنـاشُ عَـدُوٍّ لا يـزال مُشَمِّـراً   بِرِجْلٍ إذا ما الحَرْبُ شُبَّ سعيرها(٢٦)

* * * *

تَقَـدَّمَ يومـاً في ثلاثَـةِ فِتْيَـةٍ   بجرداءَ تُصْبِ للغوازِي ثُغُورهـا(٢٧)
فَبَيْناهُـمُ يَتَّابعـونَ لِيَنْتَهُـوا   بقُذْفِ نِيافٍ مُسْتَقِلٍّ صُخُورهـا(٢٨)
رَأَوْا من قِدَى الكَفَّيْنِ قُدَّامَ غُدْوَةٍ   محيطاً بِهِ من كُلّ أَوْب حُضُوُرها(٢٩)
فَوَرَّكَ لَيْناً أَحْلَصَ القَيْـنُ أُثْـرَهُ   وحاشِكَةً يَحْصَى الشَّمَالَ نَذِيُرها(٣٠)
يُزَحْزِحُهُـمْ عنـه بنَبْـلٍ سَنِينَـةٍ   يُضِرُّ بحَبَّاتِ القُلُوب حَشُوُرهـا(٣١)

* * * *

فلَما رآهُـمْ يَرْكَبُـونَ صُدُورَهُـمْ   كبُدْنِ إِيَادٍ يَوْمَ ثُجَّتْ صُدُوُرها(٣٢)
تَمَلَّزَ من تحتِ الظُّباتِ كأَنَّـه   رَدَاةٌ إذا تَعْلُو الخَبَارَ تَدُوُرهـا(٣٣)
بِسَاقٍ إذا أُولى العَـدِيِّ تَبَـدَّدُوا   يُخفِّض رَيْعَانَ السُّعَاةِ غَوِيرُهـا(٣٤)
وجـاءَ خليـلاهُ إليها كلاهمـا   يَفِيضُ دُمُوعاً لا يَرِيثُ هَمُورُها(٣٥)
يُنِيلانِ باللَّهِ المجيد لقد ثـوى   لدى حيث لاقَى زَيْنُها ونَصِيرُها(٣٦)
فقامت بَسِبْتٍ يَلْعَجُ الْجِلدَ مـارِنٍ   وَعَزَّ عليها هُلْكُـهُ وغُبُورهـا(٣٧)

* * * *

فَبَيْنَا تَنُوحُ استَبْشَرُوها بِحِبِّهـا   صحيحاً، وقد فَتَّ العِظَامَ فُتُورهـا(٣٨)
فَخَرَّتْ وأَلْقَتْ كلَّ نَعْلٍ شَرَاذِمـاً   يَلُوحُ بضاحِي الجِلْدِ منها حُدُوُرها(٣٩)

وإذا نظرنا في قصيدة حميد وجدناها تفتتح بمقدمة قصيرةٍ يتغزل فيها بِجُمْلٍ حبيبته. وهي لا تكاد تختلف عن مقدمة أبي صخر فما كان همُّ الشاعر وهو يُنشئها شكوى بثه وحزنه على هجر حبيب، ولا تسلية النفس والتسرية عنها باجترار أوصافه ومحاسنه، بل كان همه تجريب رسم لوحةٍ شاعرية فنية لحدثٍ مأساويٍّ ضخم، فيكفي من النسيب هنا تأكيد وثاقة علاقة الشاعر بِجُمْلٍ، فلو نال الدنيا بحذافيرها سوى جُمْلٍ ما أراد إلا جُمْلاً ولَعَاف الدُّنيا !

ثم يلتقط مفتاح (التخلص الحسن) إلى غرضه : (تشبيه ما يعانيه من وجد بجُمْلٍ بما تعانيه عجوز ثكلت ابنها الوحيد). ثم يرخي الزمام لشاعريته ومخيلته للشروع في (مشروع) لوحته فليس يكفيه نعتها بأنها (شمطاء) مثلما لم يكف ذلك صاحبيه ساعدة وأبا صخر، فيذهب يصف معاناتها في دربها الطويل في الحياة، وذلك لإبراز مقدار بالغ افتقارها إلى الابن الذي جاءها بعد كِبْرَةٍ، وإذا اجتمع الافتقار مع عاطفة الأمومة المتأججة فيا لَهَوْل حرقة الفقد. لقد قاست

مَرَارات العوز، وقلة ذات اليد، والحرمان القاسي، فكانت تكاد تودي ضعفاً وهزالاً، قانعة من الحياة ببقاء نَفَسها يدخل رئتيها ويخرج منها.

عاشت حيناً من الدهر عانساً، لم يطلب يدها طالب، حتى يئست من أن تجد نُهْزَةً لبناء عشٍّ أسريٍّ. لكنَّ اللهَ قيَّض لها بعد حين مَنْ تَزَوَّجها، ثم حَمَلَت وولدت غلاماً نما في كنف أبويه نموّ الرجال، ونال من التربية خير منال، فاكتسب خصالاً كراماً كثاراً من عزة نفس، وعُلُوّ همة، وقوة بدن، ونأي عن الدنايا، فصارت أمه محطّ أنظار الراجين للعون والإعطاء.

حلَفْتُ بربِّ الراقصاتِ إلى منًى   رفيقاً وربِّ الواقفين على الحَبْلِ
لَو آنَّ لَيَ الدنيا وما عَدَلَتْ به   وجُمْلٌ لغيري ما أردت سوى جُمْلِ
أتهجر جُمْلاً أم تُلِمُّ على جُمْلِ   وَجُمْلٌ عَيُوفُ الرِّيق جاذِبَةُ الوَصْلِ

* * * *

فوجدي بِجُمْلٍ وَجْدُ شَمْطَاءَ عالَجَتْ   من العيش أزماناً على مِرَرِ القُلِّ
فعاشت معافاة بأتْرحِ عِيشةٍ   ترى حَسناً ألا تموتَ من الهَزْلِ

* * * *

قُضى ربُّها بَعْلاً لها فتزوجت   حليلاً، وما كانت تُؤَمِّلُ من بَعْلِ
وعدَّت شُهورَ الحَمْل حتى إذا انقضت   وجاءَت بِخِرْقٍ لا دَنِيءٍ ولا وَغْلِ
فَهَفَّ إليها الخِلّ واجتمعت لها   عُيونُ العُفَاة الطامحِين إلى الفَضْلِ

حلَّ بالقوم داعٍ ليس منهم، ولعله من قومٍ بينهم وبينهم ميثاق، وطلب منهم تجنيد ألفي مقاتل شاكي السلاح، وحثهم على حسن اختيارهم، وأن يكونوا من خيرة القوم بناءً عضليًّا، وأوفرهم عتاداً، فلبثوا يفكرون في الأمر مليًّا، ثم لَبَّوْا ما طلب ... واختاروا ابن هذه المرأة قائداً للجيش، فطفق يمارس مهمته، حاثاً إياهمُ، إذ حَمَّلوه أمانة القيادة، ألا يتخلوا عنه في الرأي، ولا يقعدوا عن نصرته. ثم ارتدى بِزَّة القتال، وامتطى جواداً فارها ضخماً مديد المتن، وسار بجنده حاملاً اللواء، فآنسوا منه خُلُقاً رشيداً، وفعلاً سديداً، وصفاتٍ كريمة تنم عن نفس ميمونة كنفس الشاعر.

فلما التقت الفئتان جرى طراد كثير، وطعان شديد، طوال النهار، ثم لحقت الهزيمة به وبمن

معه من غير سببٍ بادٍ منهم من خَوَرٍ عن اللقاء، أو تخلٍّ عن نصرة القائد أو نصرة بعضهم بعضا. فلما ولّوا الأدبار، وأعينهم تبدو، لاضطراب نظراتها، حُولاً، دعاهم إلى المهل والتريث، ووعدهم بذب العِدا عنهم، مؤكدا أنه خير من يذود عن الذمار :

إذاً راكبٌ تَهْوي بـه شَمَّرِيَّـــةٌ   غريبٌ سِواهُمْ مِنْ أُناسٍ وَمِنْ شَكْلِ
فقال لهم : كِيدُوا بأَلْفَيْ مُقَنَّعٍ   عظامٍ طِوالٍ لا ضعافٍ ولا عُزْلِ
فَشَكُو طبيقاً أصلَهم ثم أسلموا   بكفِّ ابنها أمر الجماعة والفِعْلِ
وقال لهم : حَمَّلْتُمُونِيَ أمْرَكـم   فلا تتركوني لاشتِراكٍ ولا خَذْلِ
فلما اكْتَنَى في بِزَّة الحرب واستوى   على ظهر شَيْحانِ القَرَا نَبْلٍ عَبْلِ(٤٠)
وساروا فأعطوه اللواء وجَرَّبـوا   شمائلَ ميمونٍ نقيبته مثلـي
فلما التقى الصَّفّان كان تَطَارُدٌ   وطعنٌ به أفواهُ مَعْطُوفةٍ نُجْلِ(٤١)
نهاراً طويـلاً ثم دارت هـزيمة   بأصحابه من غير ضعفٍ ولا خذلِ
فقال لهم، والخيلُ مُدبرةٌ بهم،   وأَعْيُنُهُمْ مما يخافون كالقُبْـلِ(٤٢)
على رِسْلِكم ! إني سأحمي ذِمارَكُمْ   وهل يمنع الأحسابَ إلا فتًى مثلي ؟

وبينا كان لا يقِرُّ له قرار، يذب عنهم أعداءهم من بين أيديهم ومن خلفهم، مقتنصاً الثغرات في صف العدو رجالاً وفرساناً، مُبْرزاً عوراتهم ومواطن ضعفهم، هوى إليه رجل قد أشعل حب الانتقام في حشاه ناراً، فطعنه طعنةً شق بها أضلاعه، وأنفذها إلى باطن جوفه، فسقط عن جواده.

لكنها ما كانت بالطعنة القاضية، وإن ظنها جيشه كذلك، فكروا بخيلهم ورجلهم عائدين إلى أهليهم يبثون نبأ مصرعه، ويذكرون محاسن مَيْتِهم لدى الأباعد والأقربين معاً .. ولما بلغوا الحي كانت أمه ممتطية راحلتها، فتلقفت سامعتاها هذا النبأ بينما كان غيرها من النسوان في غفلة من أمرهن .. وقع النبأ عليها وقوع شهاب ثاقب، فما تمالكت قواها بل غشيها من الهلع الغامر ما غشيها، حتى لقد فكرت في إزهاق روحها بمُوسَى على مقربة منها، لولا أن هول الصدمة، وفظاعة الشعور بالثكل أربكاها لحسن الحظ شيئا ما، وعاقاها عن ذلك، ورب ضارة نافعة. وسرعان من أهلّ عليها ابنها سالماً معافى وافي الصحة، موفور الفتوة، يكلمها تكليماً جليًّا قويًّا.

إن شدة تعلقي بجمل، وعمق حبي لها، وابتهاجي بها، لا يقل عن شدة تعلق تلك الأم بابنها وابتهاجها بسلامته، بل لعل وجدها به أدنى من وجدي بجمل !

فَبَيْنَاه يحميهم ويَعطفُ خلفهم   بصيرٌ بعورات الفوارس والرَّجْل
هوى ثائرٌ حَرَّانُ يعلم أنه   إذا ما توارى القوم منقطع ا'نبل
فلم يستطع من نفسه غير طعنةٍ   سُوًى في ضلوع الجوف نافذة الوغْلِ
فَخَرَّ وكَرَّتْ خيلُهَ يَنْدُبونَهُ   ويُثنونَ خيراً في الأباعد والأهل
فلما دَنوا لِلْحَيِّ أسمع هاتفٌ   على غفلة النسوان، وهي على رحلِ(٤٣)
فقامت إلى مُوسًى لتذبح نفسها   وأعجلها وشك الرزيئة والثكل
فما برحت حتى أتاها كما بدا   وراجعها تكليم ذي خُلُقٍ جزلِ(٤٤)
فوجدي بجُمْلٍ وَجْدُ تِيك، وفرحتي   بِجُملٍ كما قد بابْنِها فَرِحَتْ قَبلي(٤٥)

وأخيرًا لا بد من كلمة مقتضبة عن مضمون كل من قصيدتي ساعدة وقصيدة حميد من جانب، وقصيدة أبي صخر من جانب آخر، وكذلك عن قصيدتي ساعدة شكلاً ومضمونا.

لا يفوتُ أحداً لمحُ قوَّةِ الشَّبَهِ الشديدة بين الموضوعين عند الشعراء الثلاثة لا في وحدة الفكرة أو المضمون وحسب، فهذا شأن مفروغ منه وليس مَظِنَّة اختلافٍ، بل في منهج تناول الفكرة، وبسط وحداتها وعناصرها، وتفصيل أجزاء لباسها، وبخاصةٍ في مستهل القصائد حيث يتجاوز الشاعر تجاوزاً غير متأنٍّ الحديث اللاهي عن الحبيبة ومنزلها الذي عفا واندرس حين نأت عنه، مارًّا بذلك مرور (المجاملين) الذين يطرقونه سيراً على التقليد والعرف الشعري، لا قصداً إليه عن طواعية واختيار. ويتخلص تخلصاً غير متدرج ليصل إلى الغاية التي جيء بها وكأنها «وسيلة»، أي الحديث عن المرأة الطاعنة في السنِّ وابْنِها الذي أتاها على حين مسيس حاجة إليه، فما كادت عينها تقرُّ بما آتاه الله من بسطة في الجسم، وسلامة من السقم، وما كادت تَطْعَمُ طَعْمَ نفعه، حتى أتاها من لم تُزَوِّد بنبأ قتله في اعتراك مع أعداء. ثم الحديث عن شدة وقع هذا النبأ العظيم على الشيخة الكبيرة التي طفقت تدور حول القوم دون أن يقر لها قرار، تسائل عنه بإشفاق بالغ، وطمع في أن تسمع عنه خلاف ما طرق أذنيها.

وما اختلف هو – كما أومأنا أعلاه – في الخاتمة التي أجهضت المأساة عند ساعدة وحميد، ولم تخرج عليها عند أبي صخر، ولعل هذا هو أهم فارق بين تناولهما للحدث وتناوله له، ثم في المقدمة التي أخذت قدراً من قسطها التقليدي المألوف في أحد نَصَّيْ ساعدة حيث

وصف ظعن الحبيبة، وتَغَزّلَ، وشام البرق، ونعت المطر، ولم تظفر المقدمة إلا باليسير من ذلك في نصه الآخر ولدى أبي صخر وحُميد. كما أن فتى حميد اختاره قومه رئيسا وقائداً لجيشهم. فهو، إلى جانب كونه وحيد أمه، ذو ميزة اجتماعية وسياسية مهمة لدى قومه مما يزيد فداحة شأن فقده لدى الأم. واختلف رد فعل الأم في قصيدة حميد عند بلوغ النبأ سمعها، وبلغ فيها فقدان الهيمنة على نفسها غايته فحاولت قتل نفسها.

ولِتَقَدُّم ساعدة وحميدٍ على أبي صخر – كما مضى الذكر – فليس أمام الباحث إلا قبول ما تومىء إليه ظواهر الأمور، والعلم ببواطنها عند ربي لا يعلمها إلا هو، من أن أبا صخر ما استوحى فكرة المأساة استيحاء ذاتيًّا، ولا هو اقتصر على التأثر (العفوي) بمنهج بناء عناصر القصيدة الواصفة لها، بل ذهب يحاكي ذينك الشاعرين وربما سواهما ممن لم تصلنا قصائدهم أو غفلنا عنها، كالحديث، مثلاً، عن ثُكل المرأة لبنيها السالفين، أو عقمها مع دلوفها إلى الشيخوخة، ثم إنجابها لهذا الابن بعد يأس وتكرير تزوج، وشدة تعلقها به، وتميزه بمزايا كريمة كثيرة، مما قَوَّى هذا التعلق.

بل إنه ربما لا يجور من يذهب حتى إلى اتهام أبي صخر عفا الله عنه بانتحال بعض معاني ساعدة بخاصة، وربما لا يشفع للأول ما قد يكون خاله من أن قرابته للأخير، وإن شطت، – كلاهما هذليان – ربما تخول له هذه الاستعانة الأدبية عند من لا يرونها من (حسن الأخذ) أو (محمود السرقة) اللذين تحدث عنهما النقاد(٤٦) ومن ذلك مثلاً قول ساعدة :

رَأَتْه على فَوْت الشباب وأنها   تُراجِعُ بَعْلاً مرةً وتَئِيمُ

الذي ما عدا أبو صخرٍ أن صبّه في قالب لفظي آخر غير كثير الاختلاف :

وقد لُبِسَتْ حتى تولَّى شبابها   إذا مات بعلٌ بُدِّلَتْ بعده بعلا

ولما جعل ساعدة العجوز تذرف الدموع، وتنبري لصحاب ابنها الذين نعوه إليها تسائلهم عنه، وتلومهم على تركه، وهو مشهد درامي أصيل زاخر بالتعبير الحي الصادق الذي يجسد الحدث تجسيداً بالغ الواقعية :

إذا أنزفَتْ من عبرةٍ يَمَّمَتْهُمُ   تسائلهم عن حِبِّها وتلومُ

لم يُجِدْ أبو صخر الإفادة من هذه الصورة السهلة الممتنعة فقنع بأدنى شبه بها :

فقامت إليهم تَجْمع الثُكل والرَّجْلا

وهي عبارة ظاهر لك تعثرها وعجزها عن الدنوّ من سابقتها.

على أن أسلوب أبي صخر لا يتطابق وأسلوبي حميد وساعدة أو أسلوب أحدهما حَذْوَكَ النَّعْلِ بالنعل، وهذا شأن – من دون شك – طبعيٌّ، إذ انفردت قصيدة أبي صخر مثلا بإضفاء عدة نعوت كمالٍ على الابن من رجوح عقل، وسداد رأي، وجود، وجرأة، وحمل للسلاح .. وذلك من أجل تعظيم هول البأس في فقده. كما استقلت قصيدتا ابن جؤية بالحديث عن المغانم التي ابتدأ الفتى يغنمها ويأتي بها أمه، وبتحديد موقع الصراع بأنه صخرة شاهقة مرة، أو ناحية من الجبل، وبمقاتلة الفتى عدداً من القوم لا مبارزة واحد وحسب، كما في قصيدة أبي صخر. وتفردت قصيدة حميد بشدة رد فعل الأم لما حسبت ابنها قد قتل فلم تكتف بالتعبير عن جرحها بضرب نفسها ولو بالنعال، كما صنعت أمهات الأبناء في قصائد ساعدة وأبي صخر، بل سعت للانتحار.

أما من حيث الشكل والمضمون في قصيدتي ساعدة، فمن الجلي أنه سلك في القصيدتين سبيلاً واحدةً ما كان يخرج عنها، فعناصر الحديث المفصلة وفِكَرُهُ لا تكاد تختلف اختلافاً يذكر، وكأنه شاء، من باب الافتنان الأسلوبي وحسب، إبراز مقدرته الشعرية، إذ لم يكد يجدُ في جوهر الحدث المأساوي ما يسوغ التوجه إلى علاجه بمسعى آخر، كما أن قوة الشَّبَه الصياغي بين هاتين القصيدتين القصيرتين بلغت حدًّا أوشكت أن تكون معه إحداهما ظلاً أو (صورةً شبيه الأصل) للأخرى. بل إنَّ لِمُتسائل أن يتساءل عن مدى أصالتهما، أو أن يقترح احتمال أصالة إحداهما دون الأخرى، ولولا اختلاف قافيتيهما لما كان إبعاداً للنُّجعة الذهاب إلى أنهما قصيدة واحدة لعبت بها يد الدهر، أو أيدي بنيه – وهذا هو الأرجح –، واعتراها ما اعترى كثيرا من النصوص القديمة من تعديل على ألسنة الراوين، وتحريف ونقص وزيادة سهواً أو عن عمد.

ولإبراز قدر ذلك التشابه البنائي بين القصيدتين، فيما يلي تبيان لبعض أبرز الاستخدامات المتشابهة تشابها قويًّا في هذا الجانب فيهما :

● **القصيدة الميمية :**

وما وَجَدَتْ وَجْدي بها أمُّ واحـدٍ   على النَّأْيِ شَمْطَاءُ القَـذَالِ عَقِيـمُ

● **القصيدة الهائية :**

وتاللّه ما إن شَهْلَةٌ أمُّ واحِدٍ   بأوْجَدَ مني أن يُهانَ صَغِيرُها

● **الميمية :**

رأتْهُ على فَوْتِ الشّبابِ وأنها   تُراجِعُ بَعْلاً مَرّةً وتَئِيمُ

● **الهائية :**

رأتْهُ على يأسٍ وقد شابَ رأسُها   وحين تَصَدَّى للهَوَانِ عَشيرُها

● **الميمية :**

فشبَّ لها مثلُ السِّنانِ مُبَرَّأٌ   أشَمُّ طُوالُ السَّاعِدَيْنِ جَسِيمُ

● **الهائية :**

فشبَّ لها مثلُ السِّنان مُبَرَّأٌ   إمَامٌ لنادِي دارِها وأميرُها

● **الميمية :**

فأصْبَحَ يَوْماً في ثلاثَةِ فِتْيَةٍ   من الشُّعْثِ كلُّ مُلَّةٌ ونَدِيمُها

● **الهائية :**

تَقَدَّم يَوْماً في ثلاثَةِ فِتْيَةٍ   بِجَرْدَاءَ نُصْبٍ للْغَوازِي ثُغُورها

● **الميمية :**

وقدَّم في عَيْطاءَ في شُرُفاتِها   نَعَائِمُ منها قائمٌ وهَزِيمُ

● **الهائية :**

فبيناهُمُ يتَّابعُونَ لِيَنْتَهُوا   بِقُذْفِ نيافٍ مُسْتَقِلٍّ صُخُورها

● الميمية :
فَوَرَّك لَيْناً لا يُتَمْثِمُ نصْلُه   إذا صَابَ أوْسَاطَ العِظام صَمِيمُ

● الهائية :
فَوَرَّكَ لَيْناً أُحلَصَ القَيْنُ أثْرَهُ   وحاشِكةً يَحْصَى الشّمالَ نَذِيرُها

● الميمية :
وجاء خليلاهُ إليها كلاهما   يَفيضُ دُموعاً غَرْبُهُنَّ سَجُومُ

● الهائية :
وجاء خليلاهُ إلَيْها كلاهما   يَفِيضُ دموعاً لا يَرِيثُ هَمُورُها

● الميمية :
فقامت بِسِبْتٍ يَلْعَجُ الجِلْدَ وقْعُهُ   يقبِّض أحشاء الفؤادِ أليمُ

● الهائية :
فقامت بِسِبْتٍ يَلْعَجُ الجِلْد مارِنٍ   وعزَّ عليها هُلْكُهُ وغُبُورها

● الميمية :
فَبَيْنا تَنُوحُ اسْتَبْشرُوها بِحِبِّها   على حين أنْ كلَّ المَرَام تَرُومُ

● الهائية :
فَبَيْنا تنوحُ اسْتَبْشَرُوها بِحِبِّها   صحيحاً وقد فَتَّ العظامَ فُتُورها

● الميمية :
وخَرَّتْ تليلاً لِلْيَدَيْنِ ونَعْلُها   من الضَّرْبِ قَطْعَاءُ القِبالِ خذِيمُ

● الهائية :
فخرَّت وألْقَتْ كلَّ نَعْلٍ شراذِماً   يَلُوحُ بِضَاحِي الجِلْدِ منها حُدُورها

وهكذا يبدو التشابه الذي يدنو من التماثل في عشرة أبياتٍ في كلٍّ من القصيدتين، كما ترى، وهو عدد يدنو من نحو نصف كل منهما. وذلك أمر يستبعد أن يكون وليد وقع الحافر على الحافر، بل إن من المحتمل جداً أن راوية ما نَسَجَ إحدى القصيدتين على منوال مثيلتها، وهذا أدنى إلى القبول من أن يصنع شاعرٌ ذو باع في الشعر كساعدة بنفسه هذا الصنيع الذي يشبه إلباس جارية واحدة لباساً آخر لا يختلف اختلافاً كبيراً عن لباسها الأول، ثم إبرازها للملأ على أنها جاريةٌ أخرى !

وسواءٌ أكانت قصيدتا ساعدة معاً شرعيتين، أم كانت إحداهما دخيلةً، فإن من غاية هذه المقالة توجيه النظر إلى الفحوى النادرة التي حملتها هذه القصائد الأربع، والوقوف عند مضمونها وقوف درسٍ وتأمل وإسهام وجداني، فهو مضمون درامي زاخرٌ بالحركة العاطفية الجياشة، والحدَّة الانفعالية المشبوبة، وهو - لذلك - حريٌّ بالدراسة.

إن رثاء البنين والإخوة لمن الموضوعات القديمة المشتهرة في الشعر العربي، أما وصف أحاسيس الثَّكالى في ذلك الشعر، ولا سيما العجائز الكبيرات اللاتي تفقد إحداهن ثمرة قلبها الوحيدة في حال من الحاجة الماسة إليها لا تشبهها حال، فموضوع عزيز.

كما أن هذه القصائد، من حيث البناء الصياغي أيضا، خليقة بأن يوجَّه إليها قسطها من الدرس والتمحيص.

الحواشي

(*) أشكر أخي د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك لتنبيه إياي على وجود نص حميد.

(١) روي أن أحد الخلفاء قال لذي الرمة لما أطال في وصف ناقته واقتضب في مديحه : إنما مدحت ناقتك فخذ منها الجزاء.

(٢) يصدق هذا على ذي الرمة مثلاً تمام الصدق. انظر على سبيل المثال قصيدته اللامية التي يفترض أنها كانت في مدح عبد العزيز بن مروان ومطلعها :

خليليَّ عوجا عَوْجَةً ناقتيكما   على طللٍ بين القرينةِ والحَبْلِ

في ديوانه (بشرح أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي)، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، دمشق، (مجمع اللغة العربية)، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ١/١٣٧-١٥٩، فليس من أبياتها السبعة والثلاثين ما يتضمن ما ذكرناه أعلاه سوى أبيات ثلاثة هي :

وقائلةٍ : ما بالُ غَيْلانَ لم يُنِخْ   إلى منتهى الحاجات لم تُذْرِ ما شغلي
ولو قُمتُ مذ قامَ ابن ليلى لقد هَوَتْ   ركابي بأفْواهِ السَّماوةِ والرَّجْلِ
ولكن عداني أن أكون أتيْته   عقابيلُ أوصاب يُشَبِّهْنَ بالخَبْلِ

أما البقية فوصفٌ للطلل، وغزلٌ، ووصف فلاة وقطع الشاعر لها، ووصف لناقته، وفخرٌ بما زعم أنه أوتيه من سجايا كريمة.

كما نفث نفثا بديعا في قصيدة له أخرى مطلعها :

وقفت على رَبْعٍ لِمِيَّةَ ناقتي   فما زلت أبكي عنده وأخاطبه

ذات خمسة وستين بيتاً (انظر المصدر نفسه ٢/٨٢١–٨٥٨) في وقوفه على منزل مية حبيبته، ووصفه له، ثم حديثه عن رحلة مي مع آلها وما عاناه من جراء تلك الرحلة من وجد وجوى، ثم وصف الابل، ونسب، ووصف مغامراته في جوب المفازات، ووصف جمله، وحماراً وحشياً، ويوماً شديد الحر لم يزعه عن السير، والحرباء، والجنادب التي تتقافز من شدة حر الرمضاء، وناقته، وافتخر بخصاله الكريمة، ووصف طريقا موحشاً ووصف البوم ورويعي غنم أضل صاحبه، ووروده المنهل، وماء المنهل، والحوض ... وبعد هذه الرحلة الفنية الطويلة الغنية بما لذ للشاعر وطاب من أغراض، التي جاس خلالها بالعديد من الموضوعات ضمنها أربعة وستين بيتاً من القصيدة وجد الشاعر في بيت يتيم ما يكفي للمديح ذلك الموضوع الذي لا تقبله نفسه ولا تحمله إلا كُرْهاً، هو قوله :

تؤم فتىً من آل مروان أطلقت   يداه وطابت في قريش مضاربه !!

وفي قصيدة أخرى قصيرة نسبيا (٢٢ بيتا) أولها :

عفا الزُّرْقُ من أطلال مَيَّة فالدَّحْلُ   فأجْمَادُ حَوْضَى حيث زاحمها الحَبْلُ

قالها مديحا لهشام بن عبد الملك لم يتمكن من قول غير بيت واحد فقط أيضا هو :

إلى ابن أبي العاصي هشامٍ تعسَّفَتْ   بنا العِيسُ من حيث الْتَقَى الغافُ والرملُ

(انظر المصدر نفسه ٣/١٦٠٩–١٦٢١).

وفي قصيدة أخرى له كان غرضها الهجاء لم يك قسطه من أبياتها التسعين سوى قرابة ربعها، وهي التي أولها :

دنا البين من ميٍّ فَرُدَّت جمالُها   فهاج الهوى تقويضُها واحتمالُها

انظر المصدر نفسه ١/٤٩٨–٥٥٨).

ونحو من ذلك نصيب الهجاء في قصيدته :

ألا يا اسلمي ي دار ميٍّ على البلى   ولا زال مُنْهَلاً بجرعائك القطر

(نفسه ١/٥٥٩–٥٩٨).

(٣) الشَّرَب : – بالتحريك – جمع الشربة وهي حويض يقام حول النخلة ويملأ ماءً فتتروى منه. (وانظلا مثلاً اللسان (ش ر ب).

(٤) أقْلَتَت : أقْلَتَت المرأة إقلاتاً فهي مُقْلِتٌ ومقلات إذا لم يبق لها ولد وأقلتت المرأة إذا هلك ولدها. قال الشاعر :

بُغاثُ الطَّيْرِ أكْثَرُها فِراخاً   وأمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورْ

انظر المصدر نفسه (ق ل ت).

(٥) الوَغْلُ : النذل الضعيف الساقط المقصر في الأشياء ..، وهو أيضا المدعي نسباً ليس منه، والسيِّء الغذاء. انظر المصدر نفسه (و غ ل).

(٦) الشَّكْل : اللجـام.

(٧) مُطِلَت : خُلقت طوالاً.

(٨) مُعيد : المعيد من الرجال العالم بالأمور الذي ليس بغمر اللسان (ع و د)

(٩) مَوْرُهُ : ذهابه ومجيئه. يعني الطعن. المَعَابل : جمع مِعْبَلَة وهي نصل طويل عريض. مُطِلَتْ : طُوِّلَت.

(١٠) قُطِلَتْ قَطْلاً : قُطعت قطعاً.

(١١) السِّقار : العنان. الصَّهباء : الفرس ذات اللون الأصهب (الأبيض الممزوج بحمرة).

(١٢) تسلموا : عادوا إلى حيث كانوا.

(١٣) تَجْمَعُ الثُّكْلَ والرُّجْل : تقول : «واثكلاه ! وارُجْلاه».

(١٤) انظر القصيدة في شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق عبد الستار فراج، (مكتبة دار العروبة)، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥، ٢/٩٥٩-٩٦١.

(١٥) مُبْرَأ : أي من العلل والأدواء.

(١٦) العَيْطَاءُ : الطويلة. يعني قارةً (جَبلاً). النعَّام : جمع نعامة (انظر معناها مفسرا في المتن). هزيم : متحطم مُتكسر.

(١٧) حساب : عدد كثير. سِرب : جماعة. يسوم : يسرح.

(١٨) وَرَّكَ لَيْناً : أمال سيفاً ليِّناً للضرب. يُتَمْتِمُ : التَّمْتَمَة : التعتعة، وهي الرد، أي لا تُرَدُّ ضريبته.

(١٩) أَثْرُه : الأَثْر : الفِرِنْد، وهو الوشي الذي يكون على متنه. شِبْثان : جمع شِبْثٍ وهي دويبة من العناكب. هَميم : دبيب

(٢٠) صفراء : قوس. عِدَادُها : صوتها. مُزَعْزِعَةٌ : ريحٌ شديدة تُزَعْزِع الأشياء وتحركها بعنف.

(٢١) أَحْصَنَتْهُ تُجْرُ الظُّبات : أي صارت السهام ذات النِّصال العريضة كالحِصْنِ له تكُفُّ أذى العدوِّ عنه إذ تمنعهم من الدنو منه. الجفير : الكنانة وهي كيس من جلد تُودَعُ فيه السهام. جحيم : نارٌ متوقدة. يشبه هذه السهام في حدتها وتوقدها بالنار الحية ذات الجمر المتوهج حينما لا توارى السهام في كنانتها فيبدو تألُّقها. قارِت : دمٌ جاف. دميم : مطلي. غَرْبُهُنَّ سَجُوم : الغَرْب : الدلو الكبيرة. سجوم : كثير السيلان. حَصِرُوا به : ضاقوا به وضاق. يقول كأنهم ضاقوا به ذرعا. لحيم : مقتول. سِبْت : سيرٌ من جلود البقر. يَلْعَج : يحرق. أزِفت : أفِنْت.

(٢٢) ديوان الهذليين، القسم الأول، (مطبعة دار الكتب المصرية)، القاهرة، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م، ص ٢٢٧ - ٢٣٥، وشرح أشعار الهذليين ٣/١١٦١-٦٤، حِبّها : الحِبُّ - بكسر الحاء - الحبيب، فَجَّت الناس : فرقت بينهم بيدها، ناشت : تناولت. نعوم : كأنها تعوم في مشيتها فرحاً. تليل : صريع. قَطْعَاء القِبال : قد انقطع قِبالُها. وهو السير الذي يكون بين الاصبعين في النعل. خَذِيم : مقطوعة أو منخرقة. غادة : اسم موضع. فَتْخَاءُ الجناح : كناية عن العُقاب. قال امرؤ القيس :

كأني بِفَتْخَاءِ الجناحين لِقْوَةٍ   صَيُودٍ من العُقْبَانِ طَأطَأتُ شِمْلالِ

والفَتَخُ : لين في الجناح. لَحُوم : أكولٌ لِلَّحم، وكُلُّ عُقاب لحومٌ وإنما وصفها به في هذا المقام لتأكيد سرعة هُوِيِّها طمعاً في اللحم. يخفض : يطرح وراءه. رَيْعان السُّعاة : أولهم. تنحَّي : انحرف للعَدْوِ، ووصفهم بالسُّعاة أي الذين يعْدون لأنهم يقاتلون راجلين. الكُدُرُ : الغليظ من حُمر الوَحش. أبيدة : موضع. فائِله : الفائل : عرق يمتد من الورك حتى أسفل الساق. الصفحتان : صفحتا العنق. كَدُوم : عَضوض. يوصف حمار الوحش بأنه كثير العضوض وذلك لعراكِهِ الأُتُنَ وعَضِّها له.

(٢٣) شهلة : عجوز. قال راجز :

باتت تُنَزِّي دلْوَها تَنْزِيَـــــــا
كما تُنَزِّي شهلـةٌ صبيّـــــــا

اللسان (ش ه ل). وجاء فيه : (الشَّهلة النَّصَفُ العاقلة، وذلك اسم لها خاصة لا يوصف به الرجل. وامرأة شهلة كهلة).

(٢٤) على يأسٍ: أي على يأس من أن تلد. تصدَّى للهوان عشيرها : تصدى زوجها لهوانها لأنها كبرت فهانت عليه.

(٢٥) مُبِرًّا : سبقت في ح ١٥.

(٢٦) عِناش عدوّ : معانق عدوّ. يقال : (اعْتَنَشَه) : إذا هو عانقه.

(٢٧) نُصْبِ : أي نُصْبَ عيونهم. الغوازي : الغزاة.

(٢٨) يتأبعون : يَتتابعون. بِقُذْف، والقُذْف : ناحية الجبل. نِياف : نائفٌ، منيف، طويل.

(٢٩) من قِدَى الكفَّيْن : من قدر الكفين.

(٣٠) وَرْك لِيْناً (انظر ح ١٨ أعلاه). أثْره : (انظر ح ١٩ أعلاه). حاشكة : قوس تحشك بدرتها إذا رمي عنها أسرع سهمها. يَخْصَىْ الشِّمال : يؤثر في اليد اليسرى وترها. يقال : «خَصِيَ يَخْصَى حصاه». والتَّذِير : الوَتْرُ.

(٣١) يزحزحهم : يبعد الأعداء عنه. سَنِينَةٌ : مسنونة محددة. حَشُورها : حديدها.

(٣٢) يركبون صدورهم : يقعون عليها. نُجَّت نحورها : شُقَّت وأُسيلت دماؤها.

(٣٣) تَمَلَّز : نجا وأفلت. الظُّبات : جمع الظُّبَة وهي حد السيف. رَدَاة : صخرة. شبهه بها في عدْوِه. نُدُور : النُّدور : أعلى الجبل، الخَبَار : الأرض الرِّخوة فيها حُفَرٌ وجحرة.

(٣٤) العَدِيّ : العادون أو العداة. يخفِضُ رَيْعَان السعاة : (انظر ح ٢٢ أعلاه). الغوير : العَدْوُ، وأصله من الغارة.

(٣٥) لا يَرِيث : لا يبطىء. هَمُورها : ما همر منها وسال.

(٣٦) يُنِيلان : يحلفان. أنال يميناً إذا حلف. زَيْنُها ونصيرها : يَعْنِيان ابنَها.

(٣٧) يَلْعَج : يحرق. مارِن : ليِّن. غُبُورها : بقاؤها.

(٣٨) استبشروها : بشَّروها.

(٣٩) ديوان الهذليين، القسم الثاني، (مطبعة دار الكتب المصرية)، القاهرة، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، ص ص ٢١٤-٢١٨. والقصيدة كاملة صص ٢١١-٢١٨، ومطلعها :

أهـاجك مـن عير الحبيب بكورُهـــــا أجَـدت بِلَيْـل لم يُعَـرِّجْ أميرهـــــا

وشرح أشعار الهذليين ٣/١١٧٧-١١٨١. حُدُورها : الحدور جمع حدر وهو الوَرَم.

(٤٠) اكتنى : استتر، أي لما لبس آلة الحرب. شيحان : طويل، يقصد فرساً طويل الظهر. نبيل جَسيم،طبيقاً : مَلِيًّا.

(٤١) أفواه معطوفة : أي أفواه طعنة معطوفة، أي غير مستقيمة، وهي أشد خطراً، وهي التي تذهب يمنة ويسرة، وتسمى المخلوجة أيضاً.

(٤٢) القُبْل : ج قَبْلاء وأقبل، صفتان من القَبَل، وهو إقبال سواد العين على الأنف، وقيل : هو مثل الحوَل، وقيل فيه غير ذلك. وإنما كانوا كذلك لشدة الفزع حين دارت الدائرة عليهم.

(٤٣) هاتف : الهاتف : من يُسمع صوته ولا يرى شخصه. أسمع : أسمع غيره» يريد فعلمتْ خبره وهي على رحلها.

(٤٤) ذو خُلُق : الخُلُق ج الخَلق. جَمَعَهُ ليدل على جهارة صوته. جزل : قوي شديد.

(٤٥) القصيدة في ديوانه، ص ص ١٢٣-١٢٦.

(٤٦) مثل أبي هلال العسكري في الصناعتين ص ٢١٧، والمظفر بن المفضل العلوي في نضرة الإغْريض في نصرة القريض، ص ٢٠٣ وما بعدها.

● المصـــادر ●

- ديوان الهذليين، القسم الأول، (مطبعة دار الكتب المصرية)، القاهرة، ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م، والقسم الثاني (المطبعة نفسها)، القاهرة، ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م.
- ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة عبد العزيز الميمني، (مطبعة دار الكتب)، القاهرة، ١٣٧١هـ-١٩٥١م.
- ديوان ذي الرمة (بشرح أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي)، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، (منشورات مجمع اللغة العربية)، دمشق،

  القسم الأول : ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م
  والثانــــي : ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م
  والثالـــث : ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م
- شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق عبد الستار فراج، القسم الثاني، (مكتبة دار العروبة)، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- لسان العرب، مواد (ش ر ب) و (ق ل ت) و (و غ ل)، و (ع و د) و (ش ه ل).
- نضرة الإغريض في نصرة القريض، للمظفر بن المفضل العلوي، تحقيق نهى عارف الحسن، (مطبوعات مجمع اللغة العربية)، دمشق، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

● تنبيهـــان ●

(١) إن تفسير معظم الكلمات الغريبة الذي لم يبين مصدره مأخوذ بتصرف أحياناً عن «شرح أشعار الهذليين» إذا كانت في قصائد ساعدة وأبي صخر، وعن «ديوان حميد بن ثور الهلالي» إذا كانت في قصيدته.

(٢) نفى أبو حاتم السجستاني صحة نسبة قصيدة حميد له (ينظر الديوان ص ١٢٣)، لكن الميمني أثبتها لها بناء على رواية ابن دريد، ولذلك اعتمدناها هنا، وليس يعني نسبتنا إياها له قطعنا بثبوت تلك النسبة.

● ● ●